المادة: السيرة النبوية
المحاضرة: الهجرة إلى الحبشة
المرحلة: الأولى
الأستاذ المساعد الدكتور رضاب حاتم ياسين

BIOGRAPHY OF THE PROPHET
EMIGRATION TO ABYSSINIA,
THE FIRST STAGE
ASSISTANT PROFESSOR DR. REDHAB HATEM YASSIN

الهجرة إلى الحبشة:

فلما رأى رسول الله ρ أصحابه وما يصيبهم من البلاء والشدة، وأن الله تعالى قد أعفاه من ذلك، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم من قومهم، وأنه ليس في قومهم من يمنعهم كما منعه عمه أبو طالب، أمرهم بالهجرة إلى أرض الحبشة، وقال لهم: إن بها ملكاً لا يظلم الناس ببلاده في أرض صدق فتحرزوا عنده يأتيكم الله عز وجل بفرج منه، ويجعل لي ولكم مخرجاً، فهاجر رجال من أصحابه إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفروا إلى الله عز وجل بدينهم، واستخفى آخرون بإسلامهم.

إن القول بأن الدافع الأساس للهجرة إلى الحبشة كان هو الاضطهاد والفتنة في الدين لا يعني أنه لم تكن هناك دوافع أخرى إلى جانب السبب الأساس كالسبب الديني أو السياسي أو الاقتصادي.

إن ثناء الرسول ρ على ملك الحبشة ووصفه بأنه ملك عادل وأن أرضع أرض صدق، دليل على أن الرسول ρ كان يشعر بقوة العلاقة بين دعوته وبين الديانة المسيحية، ويلاحظ أن العديد من الآيات القرآنية قد أكدت على أواصر التقارب بين الديانتين، وعبرت عن المشاعر الإيجابية التي يحملها المسلمون تجاه أتباع الديانة المسيحية، إن ما تقدم يجعل من غير المستبعد أن يكون الرسول ρ قد استهدف من حث أتباعه على الهجرة إلى الحبشة الحصول على موطن قدم هناك لنشر الدعوة الإسلامية فيها، أو لإقامة تحالف سياسي في مرحلة ما بينه وبين النجاشي من أجل تقوية مركزه في مكة، وبخاصة أن الأحباش كانت لديهم في الماضي مثل هذه التطلعات.

ويلاحظ أن السبب الاقتصادي لم يكن هو الآخر غائبا عن دوافع الهجرة إلى الحبشة، وذلك لأن قريشا كانت قد مارست ضغطا اقتصاديا قويا ضد من أسلم، وكانت الحبشة أحد الأقطار التي تتجه إليها التجارة المكية، فلا غرابة أن يسعى الرسول ρ إلى إنقاذ أتباعه من الضغط الاقتصادي الذي فرضه عليهم تجار مكة، والعمل بعد ذلك على التضييق على تجارة مكة مع الأحباش بعد توثيق أواصر العلاقة معهم، وقد كان هذا العامل من عوامل الهجرة إلى الحبشة واضحا، فعن عروة بن الزبير قال: وكانت أرض الحبشة متجرا لقريش يتجرون فيها، يجدون فيها رفاغا من رزق ومتجرا حسنا، فأمرهم بها رسول الله ρ فذهب إليها عامتهم لما قهروا بمكة، وخاف عليهم الفتن.

وهكذا فقد بدأت هجرة المسلمين إلى الحبشة بناء على أوامر الرسول ρ في شهر رجب من السنة الخامسة للبعثة، فخرجوا متسللين سرا وكانوا أحد عشر رجلا وأربع نسوة، حتى انتهوا إلى الشعبية منهم الراكب

والماشي. ووفق الله تعالى للمسلمين ساعة جاؤوا سفينتين للتجار حملوهم إلى أرض الحبشة بنصف دينار، وخرجت قريش في آثارهم حتى جاؤوا البحر حيث ركبوا فلم يدركوا منهم أحدا.

إن ما تقدم يشير غلى أن الهجرة تمت على خلاف رغبة قريش، وأنها ربما كانت تتخوف من نتائجها، لقا فقد حاولت تعقب أثرهم من أجل منعهم من الهجرة، وكان من أبرز المهاجرين: عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله ρ والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن مضعون. كما أورد ابن هشام قائمة بعشرة رجال وأربع نسوة كان بضمنها الأسماء الآنفة الذكر، وكان عليهم عثما نبن مضعون في ذكر أهل العلم.

ولم يكد المهاجرون يستقرون في أرض الحبشة حتى بلغتهم أنباء عن دخول قريش في الإسلام، فعادوا إلى مكة في شوال من السنة الخامسة للبعثة.

ولما قدم أصحاب النبي ρ مكة من الهجرة الأولى اشتد عليهم قومهم وسطت بهم عشائرهم ولقوا منهم أذى شديدا، فأذن لهم رسول الله ρ في الخروج إلى أرض الحبشة مرة ثانية، فكانت خرجتهم الآخرة أعظمها مشقة ولقوا من قريش تعنيفا شديدا ونالوهم بالأذى... وكان عدة من خرج في هذه الهجرة من الرجال ثلاثة وثمانين رجلا، ومن النساء إحدى عشرة امرأة قرشية، وسبع غرائب، فأقام المهاجرون بأرض الحبشة عند النجاشي بأحسن جوار.

إن الهجرة إلى الحبشة لم تكن هجرتين منفصلتين، وإنما هي هجرة واحدة تمت على نحو تدريجي، وكان المهاجرون يغادرون مكة على هيئة مجاميع صغيرة استغرقت عدة سنوات، وقد روي عن أم سلمة في وصف الهجرة إلى الحبشة قولها: فخرجنا إليها أرسالا حتى اجتمعنا بها.

إن هؤلاء المهاجرون إلى الحبشة قد عوملوا معاملة حسنة من قبل النجاشي، فكانت حالتهم هناك كما وصفتها أم سلمة بقولها: فنزلوا بخير دار إلى خير جار، آمنا على ديننا، ولم نخش منه ظلما.

ويبدو أن المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة ربما استطاعوا إثارة اهتمام بعض الأحباش بالرسالة الإسلامية، ودفعوهم لمحاولة التعرف عليها، فقد ذكر أنه قدم على رسول الله ρ وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريبا من ذلك من النصارى، حين ظهر خبره من الحبشة فوجدوه في المسجد فجلسوا إليه فكلموه وسألوه، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مسألتهم رسول الله ρ عما أرادوا، دعاهم رسول الله ρ وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره.

المقاطعة الاجتماعية والاقتصادية لبني هاشم:

تشكل مقاطعة قريش لبني هاشم وبني عبد المطلب حلقة مهمة من حلقات الصراع الذي كان دائرا بين زعماء المشركين في مكة وبين الرسول ρ وهي تتداخل من حيث أسبابها والظروف التي أحاطت بها بهجرة المسلمين إلى الحبشة بصورة وثيقة.

١. سعى زعماء المشركين من أجل إقناع أبي طالب في حالة عجزه عن منع الرسول ρ من مواصلة الدعوة أن يتخلى عنه، ويسمح لقريش أن تقتله، إلا أن أبا طالب وأفراد عشيرته أنفوا أن يستذلوا ويسلموا أخاهم لمن فارقه من قومه.
٢. تضمنت المقاطعة اتفاق جميع العشائر المكية على مقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب اجتماعيا واقتصاديا حتى يوافقوا على التخلي عن حمايتهم للرسول ρ، ولم يستثن من أحكام هذه المقاطعة سوى أبي لهب عبد العزى بن عبد المطلب لأنه ظاهر قريشا على عشيرته وتضامن معهم، وقد روي أن قريشا قامت بتعليق صحيفة المقاطعة في جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم، وقد استمرت المقاطعة لمدة ثلاث سنوات، أي أنها لم تنته إلا في حدود السنة العاشرة للبعثة.

يتضح مما تقدم أن شعب أبي طالب كان يمثل أحد الأحياء المكية، ويوجد فيه دار أبي طالب ودور بني عبد المطلب، وأنه حينما اشتد تهديد المشركين للرسول ρ بالقتل طلب أبو طالب من الرسول ρ الانتقال من بيت زوجته خديجة والمجيء للعيش معهم في الشعب حيث منزل والده عبد الله، وهو المنزل الذي كان قد ولد فيه، كما طلب من بقية أفراد بني هاشم والمطلب الذين كانوا يعيشون خارج الشعب أن ينتقلوا للسكن معهم في الشعب.

وتجمع المصادر التاريخية أن فترة المقاطعة كانت فترة شديدة على بني هاشم وبني المطلب، وذلك لأن قريشا قد حاولت أن تقطع عنهم كافة منافذ النشاط التجاري، وأن تمنع عنهم سبل المساعدة من أجل حملهم على التخلي عن حماية الرسول ρ، يقول عروة بن الزبير: فلبثوا في شعبهم ثلاث سنين واشتد عليهم فيهن البلاء والجهد وقطعوا عليهم الأسواق فلا يتركون طعاما يدنو من مكة ولا بيعا إلا بادروا إليه؛ ليقتلهم الجوع يريدون أن يتناولوا بذلك سفك دم رسول الله ρ.

يتضح من ذلك أن قسوة المقاطعة وشدتها قد أضرت ببني هاشم وبني المطلب، وجعلت ما لديهم من مؤونة ينفد، وأخذت آثار الحاجة والجوع تظهر عليهم، فبلغ القوم الجهد الشديد، وحتى سمعوا أصوات صبيانهم يتاضغون من وراء الشعب، لذا فقد حاول أبو طالب أن يجد بعض المنافذ لمقاومة آثار الحصار الاقتصادي، فقد ذكر أن علي بن أبي طالب τ كان يخرج ليلا من الشعب، ويخفي نفسه، ويضائل شخصه، حتى يأتي إلى من يبعثه إليه أبو طالب من كبراء قريش، كمطعم بن عدي وغيره، فيحمل لبني هاشم على ظهره أعدال الدقيق والقمح، وهو على أشد خوف من أعدائهم كأبي جهل وغيره، لو ظفروا به لأراقوا دمه.

وقد حاول بنو هاشم وبنو المطلب أن يستغلوا فرصة الحرية في الحركة والتعامل التي تتيحها لهم الأشهر الحرم، فعمدوا إلى الاتصال بأبناء القبائل العربية الين يفدون إلى مكة في موسم الحج للمتاجرة معهم، وعلى الرغم من أن زعماء المشركين في مكة كانوا يراقبونهم ويحاولون الدخول معهم في مضاربات بهدف منعهم

من عقد أية صفقة ناجحة، إلا أن ذلك لا يمكن أن يمنعهم بصورة تامة من المتاجرة والحصول على بعض احتياجاتهم من السوق.

إن الوضع الذي أصبح فيه بنو هاشم وبنو المطلب، لم يكن موضع ارتياح من قبل مشركي قريش، بل إن هذا الوضع أصبح مصدر قلق وانقسام في صفوفهم، وذلك لأن منهم من سره ذلك ومنهم من ساءه، بل إن عامة قريش كرهوا ما أصاب بني هاشم من البلاء، فلا عجب أن حاول بعض رجالات قريش ممن تربطهم صلات القربى والمصاهرة أو المودة ببعض بني هاشم والمطلب، تقديم العون والمساعدة لهم، على الرغم من معارضة زعماء المقاطعة.

وقد قدمت المصادر بعض الأخبار عن محاولات بعض رجالات قريش تقديم المساعدة للمحصورين في الشعب، فهشام بن عمرو بن ربيعة كان ذا شرف في قومه، وتربطه صلات قرابة ببني هاشم كان يأتي بالبعير ليلا، وقد أوقره طعاما، حتى إذا أقبله في الشعب حل خطامه من رأسه ثم ضرب جنبه فدخل الشعب عليهم، ويأتي به وقد أوقره برا أو بزا، فيفعل به مثل ذلك. وذكر أن حكيم بن حزام خرج يوما ومعه إنسان يحمل طعاما إلى عمته خديجة بنت خويلد وهي تحت رسول الله ρ، ومعه في الشعب، إذ لقيه أبو جهل فقال: تذهب بالطعام إلى بني هاشم والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك عند قريش، فقال له أبو البختري بن هاشم بن الحارث بن أسد: تمنعه أن يرسل إلى عمته بطعام كان لها عنده، فأبى أبو جهل أن يدعه، فقام إليه أبو البختري بساق بعير فشجه ووطئه وطئاً شديداً، وحمزة بن عبد المطلب قريباً يرى ذلك وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله ρ وأصحابه فيشمتوا بهم.

وهكذا فقد كان الرسول ρ والمسلمون وكل من وقف إلى جانبهم يعيشون في محنة قاسية طوال فترة المقاطعة التي امتدت حوالي ثلاث سنوات، وعلى كافة المستويات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فهل منع ذلك رسول الله ρ من مواصلة طريقه في الدعوة إلى الإسلام ونشر مبادئه بين الناس؟

انتهاء المقاطعة:

وبعد ثلاث سنوات من المقاطعة، اتفق بعض كبار قريش على نقض الصحيفة وحينما تقرر نقضها، قام المطعم بن عدي إلى الصحيفة فشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا باسمك اللهم.

المصادر:

السيرة النبوية: ابن هشام: الجزء الأول

السيرة النبوية: ابن كثير: الجزء الأول

الروض الأنف: السهيلي: الجزء الأول

الوسيط في السيرة النبوية والخلافة الراشدة: هاشم يحيى الملاح